خطبة صلاة الجمعة 3/ 1/ 2020 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الوفاة واستمرار الدعوة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 45 – 48].

روى الإمام البخاري عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة. فقال: أجل، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا».

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب 21].

أيها الإخوة: هذه هي الخطبة الثامنة في سلسلة علمتني السيرة النبوية، وقد عرضت السلسلة مختارات من السيرة العطرة وقطفت من دروسها ما نحتاجه ليومنا وغدنا؛ لنزداد له صلى الله عليه وسلم محبة، ولنجتهد به اقتداء، ولنكثر عليه صلاة، صلوات ربي وسلامه عليه.

كان عنوان الخطبة الأولى: بدء الوحي، والثانية: بدء الدعوة والثالثة: جهاد الدعوة، والرابعة سَفَر الدعوة، والخامسة الهجرة والدعوة، والسادسة السنة الأولى في المدينة، والسابعة الدعوة في المدينة.

وعنوان خطبة اليوم: **الوفاة واستمرار الدعوة.**

أيها الإخوة:

قال أهل السِّيَر: (لما تكاملت الدعوة وبُلِّغت الرسالة أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره صلى الله عليه وسلم، وتنضح بعباراته وأفعاله. لقد اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يوماً، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب، ودارسه جبريل القرآن مرتين، وقال في حجة الوداع: «إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً»، وقال وهو عند جمرة العقبة: «خذوا عني مناسككم، فلعلي لا أحج بعد عامي هذا» ، وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، وأنه نعيت إليه نفسه.

وفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر صفر سنة 11 هـ بدأ مرض الوفاة الذي استمر به صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر يوماً، أخذه صداع في رأسه، واتقدت الحرارة، حتى إنهم كانوا يجدون سَورتها فوق العصابة التي تعصب بها رأسه.

وثقل به صلى الله عليه وسلم المرض، فاستأذن أزواجه فقضى عند السيدة عائشة آخر أسبوع من حياته، وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت تنفث على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة، أحس بخفة، فدخل المسجد – وهو معصوب الرأس – حتى جلس على المنبر، وخطب الناس فقال: «أمّا بعد أيها الناس! فإنّي أحمد الله الذي لا إله إلا هو، فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه! ألا وإنّ الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني. ألا وإنّ أحبكم إليّ من أخذ مني حقاً إن كان له، أو أحلّني منه فلقيت الله وأنا طيب النّفس. وقد أرى أنّ هذا غير مغنٍ عني حتى أقوم فيكم مراراً».

ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها، فقال رجل: إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: أعطه يا فضل، ثم أوصى بالأنصار وقال: لا تتخذوا قبري وثناً يعبد.

ثم قال: «إن عبداً خيّره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده» قال أبو سعيد الخدري: فبكى أبو بكر. قال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر».

ورجع صلى الله عليه وسلم إلى بيت عائشة وعاد الوجع للاشتداد، فقال: «هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده» – وفي البيت رجال فيهم عمر – فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قوموا عني».

ثم أمر أبا بكر أن يصلي بالناس بقوله «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس» فصلى أبو بكر تلك الأيام سبع عشرة صلاة في حياته صلى الله عليه وسلم.

وقبل يوم من الوفاة يوم الأحد أعتق النبيّ صلى الله عليه وسلم غلمانه، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته، ولما كان يومُ الإثنين آخرُ يوم من الحياة وكان المسلمون في صلاة الفجر – وأبو بكر يصلي بهم – لم يفجأهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يخرج إلى الصلاة.

قال أنس: وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم، فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليهم بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

وطفق الوجع يشتد ويزيد، ورأت فاطمة ما برسول الله صلى الله عليه وسلم من الكرب الشديد الذي يتغشاه، فقالت: واكرب أباه. فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم».

وأوصى الناس، فقال: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»، كرر ذلك مراراً.

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله عليّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته. دخل عبد الرحمن- بن أبي بكر- وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته. فاستن به كأحسن ما كان مستناً، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه، يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات».

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول: «مع الذين أنعمت عليهم من النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى».

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثاً، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الإثنين 12 ربيع الأول سنة 11 هـ. وقد تم له صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

وتسرب النبأ الفادح، وأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها. قال أنس: ما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما مات قالت فاطمة: يا أبتاه أجاب ربا دعاه. يا أبتاه في جنة الفردوس مأواه. يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.

ووقف عمر بن الخطاب – وقد أخرجه الخبر عن وعيه – يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجعت إليهم بعد أن قيل قد مات.

ووالله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات.

وأقبل أبو بكر، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مسجى ببُرْدِه، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه، فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتّها.

ثم خرج أبو بكر، وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر. فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً صلى الله عليه وسلم فإنّ محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. قال الله: ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

قال ابن المسيب: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعَقِرتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد مات».

أيها الإخوة:

مات الرسول صلى الله عليه وسلم وما ماتت الرسالة.

مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه ومضى خلفه ركب الدعاة يسيرون بسيره.

انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقلت أمانة الدعوة بعده إليكم.

لقد حمل الصحابة والتابعون وتابعوهم أمانة التبليغ وهمّ الدعوة، فكانوا خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة ووراثَه تبليغها، وها هي دعوة الإسلام وتعاليمُه وصلت إليك أنت، فهل تكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهل تكون وريثه؟ وهل تحمل همّ الرسالة وأمانة التبليغ بعده؟

أخرج ابن عساكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**رحمة الله على خلفائي، قيل ومن خلفاؤك يا رسول الله؟ قال الذين يحيون سنتي ويعلمونها الناس**».

ختاماً أيها الأخوة؛ ما المطلوب من كلٍّ منّا ليكون خليفة رسول الله ﷺ في نشر الدعوة ووريثه في التبليغ؟

المطلوب ثلاثة:

1. تمثّلْ رسالة الإسلام في شخصك وسلوكك.
2. بلّغْ مَن تستطيع ممن حولك بالحكمة والموعظة الحسنة.
3. ساندْ وساعد من يبلّغون رسالة الإسلام.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب 56].

والحمد لله رب العالمين